لماذا نحن متخلّفون في بلادنا؟

النقيب المهندس سليمان هارون

يذهل المرء عندما يرى ما يجري في البلاد العربية من تدمير منهجي لمظاهر الحضارة ويتساءل كيف ان هذه الشعوب التي كانت في يوم من الايام رائدة في العلوم والفنون وتمتعت بقدرة اقتصادية وسياسية وعسكرية مكنّتها من فرض سلطانها على بقاع شاسعة تمتد من اقاصي الشرق وحتى غرب اوروبا، صارت اليوم قبائل وعشائر ومذاهب متناحرة تعيش على هامش العصر.

وفي زمن كانت اوروبا غارقة في جاهليتها، وفي ما بات يعرف بالقرون الوسطى، كان للمفكرين المسلمين مساهمات في الادب والرياضيات وعلم الفلك والطب والكيمياء، فطوروا مثلا آلة "الاسترولاب" التي كانت تستعمل للملاحة ولمراقبة الكواكب وتعلموا من الصينيين صناعة الورق، وهو ما كان عاملا مهما لقيام عهد النهضة لاحقاً في اوروبا.

لقد وصلت منطقة الشرق الاوسط وتحديدا الدول العربية الى اوج حضارتها ابان الخلافة العباسية. في القرن التاسع ميلادي انشأ الخليفة المأمون "بيت الحكمة" الذي ضمّ مجموعة من العلماء الذين اخذوا على عاتقهم ترجمة المخطوطات اليونانية القديمة، وبرع منهم علماء في الرياضيات مثل اسحق بن حنين وثابت بن قره والخوارزمي. لقد جمع "بيت الحكمة" عددا من العلماء المسلمين وغير المسلمين الذين سعوا الى جمع ما توصلت اليه الحضارات المختلفة على مدى العصور في مكان واحد ولغة واحدة: العربية.

ثم حلت الكارثة مع غزو المغول للمنطقة سنة ١٢٥٨ فاحتلوا بغداد وشرّدوا العلماء، واحرقوا المكتبات وقضوا على ثقافة متكاملة استمر بناؤها على مدى خمسة قرون. وقد كان هذا الدمار الذي احدثوه في قلب منطقة الشرق الاوسط بداية للمنحى الانحداري لشعوبها. وتوالى على السيطرة منذ ذلك الوقت وحتى اواسط القرن العشرين حكام أتوا من خارج المنطقة، من صليبيين ومماليك وفاطميين واتراك من قبائل مختلفة ومنهم العثمانيين، وصولا الى الانتداب الاوروبي بعد الحرب العالمية الاولى وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

ان التخلف عن اللحاق بالتقدم العلمي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي يصيب البلدان العربية اليوم مرده الى عدة اسباب اجتمعت لتشكل معا حاجزا يصعب على شعوب المنطقة اجتيازه. واهم هذه الاسباب ثلاثة:

<u>اولاً: غياب الديمقراطية</u>

يقول العالم البرت انشتاين: "ان المثال الاعلى في السياسة هو الديمقراطية: يجب احترام كل مواطن كشخص بحد ذاته، ويجب عدم رفع أي كان الى مرتبة الآلهة". لقد هرب انشتاين من الحكم الديكتاتوري في المانية النازية ولجأ الى الولايات المتحدة حيث عاش ليصبح واحدا من اعظم العلماء في تاريخ البشرية.

اما استاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد صامويل هانتينغتون فيعتبر ان الديمقراطية توسعت في العالم من خلال موجات ثلاث: الاولى بدأت في اوائل القرن التاسع عشر مع اعطاء حق التصويت للرجال "البيض" في اميركا، الثانية في اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، والثالثة في سنة ١٩٧٤ في البرتغال، ثم بعدها اميركا اللاتينية وبلدان الشرق الاقصى في الثمانينات، وكذلك اوروبا الشرقية على اثر انهيار الاتحاد السوفياتي. طبعا لم يصل هذا المد الى بلدان الشرق

الاوسط العربية، اما ما يسمى بالربيع العربي فان أي امل بديمقراطية صحيحة قد ينتج عنه يبقى لغاية الآن امرا غير مؤكد. فالانظمة التي اطيح بها او تلك التي هي على وشك، عمت مكانها الفوضى وعدم الاستقرار السياسي وتراجع الاقتصاد، واذا بالشعوب العربية امام خيارات مستحيلة: اما القبول بالديكتاتورية او التيوقراطية او العسكريتاريا واما الفوضى.

وفي الخلاصة ان غياب الديمقراطية يجعل من المستحيل استخراج كل طاقات المجتمع، اذ لا يمكن للنفس البشرية ان تعطي افضل ما عندها اذا لم تتمتع بالحرية، ولا حرية بدون ديمقراطية.

<u>ثانياً: تهميش دور الاكاديميين</u>

نادرا ما تسمح الانظمة في الدول العربية للعلماء والمفكرين والفنانين بلعب دور مهم في الشأن العام. وهو ما ساهم في ابقاء مستوى التعليم في الجامعات العربية متدنيا مقارنة مع نظيراتها في البلدان الصناعية. وبسبب ذلك نرى الطلاب العرب المتفوقين يتوجهون الى اميركا واوروبا للحصول على الشهادات العليا: والبارزون منهم تتهافت عليهم فرص العمل لكي يبقوا في هذه البلدان بعد انتهاء دراستهم.

لقد اعطيت جوائز نوبل منذ انشاءها اكثر من ثمانماية وخمسون مرة، وقد حازت عدة شخصيات عربية على هذه الجائزة: ثلاث منها للسلام (السادات، عرفات، البرادعي) وواحد للأدب (نجيب محفوظ)، عربي واحد فقط لا غير حاز على جائزة نوبل في حقل علمي هو المصري احمد حسن زويل سنة ١٩٩٩، في الكيمياء. الا انه يعيش في الولايات المتحدة حيث ذهب اليها في سبعينيات القرن الماضي لمتابعة دراسته الجامعية وبقي فيها وهو حاليا عضو في لجنة شكلها الرئيس اوباما، يستشيرها لبلورة سياسته في مجال التقدم العلمي والتكنولوجي.

كذلك فان شبه انعدام الانفاق على البحث العلمي في بلد ما يجعل من وجود أي عالِم فيه دون فائدة. لقد بلغ مجموع الانفاق على الابحاث في العالم سنويا الف مليار دولار: حوالي نصفه في الولايات المتحدة وحدها. وفي حين لم يتجاوز ثلاثة مليارات دولار في الدول العربية مجتمعة فقد بلغ سبعة مليارات في كل من سنغافورة وبلجيكا وفنلندا وهي بلدان صغيرة. اما الصين ورغم انها حافظت على نظامها الشيوعي فهي تأتي في المرتبة الثانية في الانفاق على الابحاث والتطوير، وذلك بمبلغ سنوي يناهز ثلاثماية مليار دولار، ربما لان اكثرية القادة الصينيين هم من المهندسين المحترفين الذين يؤمنون بفائدة هذا النوع من الانفاق.

وفي المحصلة النهائية، ان الدول العربية تعاني من نزف مستمر للادمغة حيث يغادرها من يتمتّع بتفوق علمي لشعوره بان افق التقدم المهني محدود جدا ان لم يكن مسدودا وهذا طبعا يعيق تقدم المجتمعات.

<u>ثالثاً: الدور الضعيف في الاقتصاد العالمي</u>

رغم الثروات الطبيعية التي تتمتّع بها بعض الدول العربية لا سيما البتروكيميائية، فان دورها في الاقتصاد العالمي يبقى محدودا لا سيما في مجالات الصناعة والزراعة مما يجعل منها مجتمعات استهلاكية تستورد اكثر مما تورّد وبالتالي تبقى تحت رحمة الدول المنتجة.

ان قيمة الناتج المحلي لمجموعة الدول المنتسبة الى جامعة الدول العربية سنة ٢٠١٢، هو دون ثلاثة الآف مليار دولار اميركي، أي ما يوازي تقريبا الناتج المحلي في فرنسا وحدها بينما تجاوزت في المجموعة الاوروبية ثلاثة عشر الف مليار دولار. اضف الى ذلك سوء التوزيع، حيث ان الدول العربية الاكبر في عدد السكان، والتي من المفترض ان تشكل خزانا بشريا هو ضروري لبناء اقتصاد فاعل، تعاني من الفقر مع ما ينتج عنه من نقص في التعليم وازمات اجتماعية وصحية تعيق أي تقدم.

في قطر مثلا، ان معدل الناتج المحلي للفرد تجاوز مائة الف دولار اميركي بينما يتراوح في مصر وسوريا والجزائر والعراق بين خمسة الآف وسبعة الآف دولار.

هذا التفاوت الكبير جعل الدول الخليجية الغنية تستثمر معظم اموالها في الدول الاوروبية حيث معدّل دخل الفرد يتجاوز ثلاثين الف دولار وفي الولايات المتحدة اربعين الفاً وتستفيد منه شرائح كبيرة من المواطنين وليس فقط قلة مهيّمنة مما يسمح بحركة اقتصادية اوسع واكبر، وبالتالي تؤمن ربحا مقبولا للمستثمرين. وفي النتيجة فان اقتصاد الدول الصناعية الغنية ينمو على حساب الدول العربية التي يزداد اقتصادها هشاشة وفقراءها فقراً.

واخيرا فان السؤال الذي يطرح نفسه، هل من سبيل للخروج من هذه الدوامات؟ لا يمكن ان يحصل هذا الامر دفعة واحدة بل قد يكون ممكناً بصورة تدريجية ونتيجة عمل تراكمي : فمكافحة الفساد، وتقوية دور المرأة، والابتعاد عن الطائفية، ومحاربة الامية واحترام حقوق الانسان والمحافظة على البيئة واحترام المؤسسات، كلها خطوات ضرورية لبدء انطلاقة جديدة نحو مستقبل افضل قد يبدو بعيداً في الوقت الحاضر.